



Sophie Beth Roberts.- *Citizenship and Antisemitism in French Colonial Algeria, 1870-1962* (Cambridge: Cambridge University Press, 2017), 392p..²

صوفي بيت روبرتس، المواطنة ومعاداة اليهود في المستعمرة الفرنسية الجزائر 1870-1962 (كامبريدج: منشورات جامعة كامبريدج، 2017).

هذا الكتاب في أصله أطروحة قدمتها صوفي روبرتس (Sophie B Roberts) سنة 2011 للحصول

على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من قسم التاريخ بجامعة تورنتو الكندية، ويقع في 392 صفحة موزعة على سبعة فصول. ويتبع الكتاب القوى المتنافسة في معاداة اليهود والنشاط المدني اليهودي في الجزائر في عهد الاستعمار الفرنسي منذ مرسوم كريميو (Adolphe Cremieux) لعام 1870 حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. ويركز الكتاب على تجربة اليهود الجزائريين وتطور هويتهم باعتبارهم مواطنين؛ وهم يتنافسون مع الفئات الاستعمارية الأخرى، بمن فيها فرنسيو المتروبول والمواطنون، والمستوطنون الذين حصلوا على الجنسية الفرنسية، والمسلمون الجزائريون. كما يركز على الحلقات الدورية والمتكررة من معاداة اليهود نتيجة التنافس من أجل السيطرة على الحكم المحلي من خلال التحكم في تسيير البلديات.

واجه اليهود الجزائريون منافسة شديدة بشكل خاص من المستوطنين الفرنسيين المتجنسين والذين هاجروا من إيطاليا، وإسبانيا، ومالطا. ونظر هؤلاء المهاجرون إلى اليهود الجزائريين باعتبارهم منافسين خطرين لهم في المكانة. وبدل قبول اليهود العداء لهم كمسألة حتمية، دافع اليهود الجزائريون عن أنفسهم ضد الهجمات المعادية بتشكيل منظمات دفاع مثل اللجنة الجزائرية للدراسات الاجتماعية.

2. يمكن العودة أيضا إلى العرض التالي المتعلق بنفس المؤلف في:

Margaret Andersen. Review of Roberts, Sophie B., *Citizenship and Antisemitism in French Colonial Algeria, 1870-1962*. H-Diplo, H-Net Reviews. July, 2018. URL: <http://www.h-net.org/reviews/showrev.php?id=52009>

حاول اليهود الجزائريون إثبات جدارتهم بالجنسية الفرنسية في مواجهة المنافسة ومعاداة السامية. وعلى الرغم من أن قضايا المنافسة والوضع القانوني، والهوية، والحقوق خاصة في حالة المستعمرة الفرنسية الجزائر، قد تعتبر مكملات لدراسات عن سياقات استعمارية أخرى ودول حديثة النشأة، فإن مثل هذه المناقشات بشأن المواطنة والانتماء قد تقع في صلب كثير من الاضطرابات الحاصلة في تاريخ القرن العشرين.

وترى الكاتبة صوفي روبرتس أن مرسوم كريميو لم يتعلق في نهاية المطاف باليهود أنفسهم بقدر ما تعلق بالاحتياجات الاستراتيجية للنظام الاستعماري. فقد ظن الساسة الفرنسيون أنه من خلال استيعاب اليهود الجزائريين وإدماجهم كمواطنين، سيضمنون أمن النظام في المستعمرة بضم 35.000 مواطن جديد إلى سكانها الفرنسيين. وفي المقابل، كان المسؤولون الاستعماريون الفرنسيون مقتنعين باستحالة استيعاب المسلمين الجزائريين.

اندمج اليهود الجزائريون، بحكم مواطنتهم، غير أنهم عند مواجهتهم في عام 1962 لحقائق استقلال الجزائر، اختاروا اللحاق بفرنسا على وطنهم الأصلي. لقد انتقد ألبير ميمي (Albert Memmi) يهود شمال إفريقيا أمام اندماجهم ورفضهم في النهاية لإخوانهم "المستعمرين"، أي المسلمين. وكتب ميمي يقول إن اليهودي "أدار ظهره للشرق"، فاختار الفرنسية على العربية وأخذ بالعادات الفرنسية.

رتبت المؤلفة صوفي روبرتس كتابها زمناً لتوضيح التغيرات والتطورات في ممارسة اليهود الجزائريين لمواطنتهم، وتنامي التنافس بين فئات السكان في المستعمرة على الموارد النادرة للدولة، وظهور معاداة اليهود سياسياً.

ويتناول الفصل الأول مسألة تنامي عداة المهاجرين الأوروبيين في الجزائر لليهود في تسعينات القرن التاسع عشر. وقد ظهر هذا التنافس بعد المرسوم الصادر في 1889 الذي جنس كثيراً من الأوروبيين غير الفرنسيين في الجزائر. فرأى كثير منهم في وضع اليهود منافساً لهم. لقد اشتدت معاداة اليهود بالتزامن مع أحداث في المتروبول، وفي نهاية المطاف تجاوزتها في أبعادها. كما حفزت قضية دريفوس (Dreyfus)، العداة لليهود، مما أدى في 1898 إلى أعمال شغب في المتروبول والمستعمرة والتي تشكل محور الفصل الثاني.

ويتناول الفصل الثاني نجاح المستوطنين المتنامي في ظل السياسة الجزائرية التي نهجتها المتربول انطلاقاً من باريس؛ وتمثل ذلك في ماكس ريجيس (Max Régis) رئيس بلدية الجزائر العاصمة المعادي لليهود. وشهدت معاداة اليهود في الجزائر أنجح فتراتهما في السنوات التي تلت عام 1898 مباشرة، بما في ذلك انتخاب أربعة نواب معادين لليهود في الجمعية الوطنية. واكتسب المعادون لليهود درجات من المصادقية بضم قضيتهم إلى الجهود التي بذلت من أجل إقامة الحكم الذاتي في الجزائر.

ويركز الفصل الثالث على تناول موضوع الرد اليهودي على الخطر الذي تعرضت له مواطنة اليهود من قبل المعادين لهم. وقد دافع اليهود الجزائريون في أوائل القرن العشرين عن حقوقهم كمواطنين فرنسيين ضد الموجة المستمرة من الانتقادات المعادية لهم، ولا سيما بعد جهودهم الوطنية في الحرب العالمية الأولى. وأصبحت جهود دفاع اليهود مرتبطة بتأثير الرابطة اليهودية العالمية، التي بدأت عملها في الجزائر سنة 1900. وقد شدد الدفاع على الاندماج، وهو الهدف الرئيس للرابطة وزعمائها. ورأى زعماء يهود الجزائر أن أفضل وسيلة يحارب بها اليهود العداء لهم هو تفنيد الادعاءات بتخلفهم أو هيمنة جماعات المصلحة عليهم. وقد استخدمت اللجنة الجزائرية للدراسات الاجتماعية، وهي من أهم منظمات الدفاع، الوطنية اليهودية المتمثلة في المشاركة في الحرب العالمية الأولى دليلاً على الاندماج اليهودي، وشجعت على استمرار اندماج اليهود الجزائريين.

ويتناول الفصل الرابع ما وصفته الباحثة بجهود المسلمين الجزائريين للحصول على حقوق في المستعمرة. ويبحث في المواجهات اليومية العنيفة بين اليهود والمسلمين. وقد تسارع تدهور العلاقات بينهم مع مطالبة المسلمين بحقوق سياسية. واستند المسلمون الجزائريون في تلك المطالبة إلى الخدمة التي قدموها في الحرب العالمية الأولى، على غرار اليهود الجزائريين. وفي الوقت ذاته، تعتبر الباحثة أن الوطنية الإسلامية الجزائرية قد تطورت مع تنامي الاستياء من تفوق وضع اليهود.

ويتتبع الفصل الخامس جهود الجبهة الشعبية لتحسين الوضع السياسي للمسلمين الجزائريين. فقد ثبت في مناقشات المواطنة الاستعمارية في فترة ما بين الحربين العالميتين أن حقوق اليهود لا تنفصم عن حقوق المسلمين. أمّا المعادون لليهود، فقد اعتقدوا أنهم يستطيعون القضاء على مواطنة يهود الجزائر ويجولون دون تعزيز حقوق المسلمين. وبينما اندمج اليهود الجزائريون أكثر من أي وقت مضى مع الفرنسيين وشاركوا بأعداد كبيرة في الانتخابات، فقد وجدوا أن هناك بالفعل حدوداً لمواطنتهم، إذ استخدمت سياسة معادون

لليهود ورؤساء بلديات سلطتهم ونفوذهم لحذف أسماء الناخبين اليهود من القوائم الانتخابية.

ناشد يهود جزائريون المنظمات الدولية أن تساعدتهم في الدفاع عن حقوقهم ضد هجمات المعادين لليهود. ومع أنهم حققوا مستويات معينة من النجاح، فسرعان ما تبين لهم مدى تفشي معاداة اليهود على المستوى الرسمي في فرنسا.

ويتناول الفصل السادس ما تصفه الكاتبة بالتمزق الأشد والأكبر الذي تعرض له اليهود الجزائريون؛ فقد ألغيت جنسيتهم تحت حكم فيشي. فبعد سبعين سنة من الاندماج والمشاركة في المجتمع المدني الفرنسي، اختزل وضع اليهود الجزائريين إلى رعايا في ظروف أسوأ من ظروف المسلمين الجزائريين.

لم يقتصر إلغاء مرسوم كريميو في عهد فيشي على إثبات شدة العداء لليهود في المتروبول وفي المستعمرة، بل بيّن كذلك مدى اندماج اليهود الجزائريين ومدى إعادة تشكيل هوياتهم كمواطنين على مدار سبعين عامًا. وبعد الإلغاء، ناضل اليهود الجزائريون لاستعادة مواطنتهم، على مستوى فردي من خلال مناشدات إلى نظام فيشي، وبصورة جماعية من خلال الضغط على حكومة فيشي والتنسيق مع المنظمات اليهودية في جميع أنحاء العالم. لقد جذبت محنة اليهود الجزائريين إلى قضيتهم فلاسفة وقانونيين مهمين، من بينهم حنا أرندت (Hannah Arendt) وهنري توريس (Henry Torrès)

كان لليهود الجزائريون دور مهم في نزول الحلفاء سنة 1942 وساعدوا في الإطاحة بحكم فيشي في الجزائر. لكنّ معادي اليهود أثبتوا أنهم عدو لدود، إذ بقي مرسوم كريميو ملغى حتى بعد نزول الحلفاء في شمال إفريقيا. ولم تُعدّ المواطنة إلى اليهود الجزائريين إلا في عام 1943 عندما قرر شارل ديغول (Charles de Gaulle) استئناف العمل بمرسوم كريميو.

يتتبع الفصل السابع والأخير إحباطات اليهود الجزائريين في فترة ما بعد الحرب، ويركز على المعركة لاستعادة مرسوم كريميو. ويبحث أيضا في التحديات التي واجهها المسلمون الجزائريون الذين حاربوا من أجل كسب الحقوق، وخاصة العنف المفرط في سطيف وقلمة في ماي 1945. ويتتبع هذا الفصل المعارك النهائية التي خاضها الجزائري المسلم للحصول على الحقوق الفرنسية حتى عندما أصبح الاستقلال ممكنا.

وخلال فترة الحرب، حاول اليهود الجزائريون البقاء على هامش النزاع، حتى عندما اقترب العنف منهم. وفي نهاية المطاف، كان على اليهود الجزائريين أن يختاروا بين أن يكون مستقبلهم في فرنسا أم في جزائر مستقلة، فاختار معظمهم فرنسا.

إن تداخل موضوع الدراسة مع مواضيع عدة: اليهود في الجزائر، ومعاداة اليهود، والمواطنة، والحكم المحلي، جعل الباحثة تعتمد على مجموعة متنوعة من المحفوظات المختلفة. لقد استخدمت صوفيا روبرتس، بخصوص المواد الأساسية المتعلقة باليهود الجزائريين، أرشيف المجلس المركزي لليهود في باريس الذي يتضمن وثائق من المجالس اليهودية الجزائرية، بالإضافة إلى المراسلات بين المجالس الجزائرية والمجلس المركزي. كما استخدمت أيضًا أرشيفات الرابطة اليهودية العالمية في باريس، التي تحتوي على وثائق عن تطوير مشروع الرابطة في الجزائر. إن المواد الموجودة في هذه المجموعة محدودة؛ لأن عمل الرابطة في الجزائر كان مقيدًا، استنادًا إلى أن اليهود الجزائريين كانوا يلتحقون بمدارس فرنسية علمانية.

واستخدمت الباحثة أيضًا أرشيف مركز التوثيق اليهودي المعاصر في باريس بحثًا عن مواد متعلقة باليهود الجزائريين تحت سلطة فيشي وسعيهم لاستعادة مواطنتهم.

واعتمدت الباحثة على محفوظات أرشيف ما وراء البحار (CAOM) في إيكس أون بروفانس (Aix-en Provence) الذي يضم مصادر غنية عن المشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر الذي برز فيه اليهود. وتوجد وثائق شاملة عن معاداة اليهود وعن معادي اليهود في الجزائر عام 1890. وتتضمن أرشيفات ما وراء البحار مجموعات من التماسات اليهود الجزائريين للاحتفاظ بجنسيتهم والملفات التي قدموها بخصوص التعداد العام للسكان عام 1941.

ويتيح الأرشيف الوطني في باريس، مثل أرشيف ما وراء البحار، تقارير إدارية عن الجزائر، لكن المواد المتعلقة بالجزائر متفرقة إلى حد ما بالمقارنة مع ملفات أرشيف ما وراء البحار. واكتشفت الباحثة في دفاتر المراقبة منذ تسعينيات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بشأن التجمعات والأنشطة المعادية لليهود، العلاقة القوية بين معاداة اليهود عبر البحر الأبيض المتوسط. كما استعملت الباحثة روبرتس أرشيف رابطة حقوق الإنسان بشأن نداءات اليهود الجزائريين طلبًا للمساعدة والدعم في الدفاع عن

حقوقهم. وتحتوي ملفاتها على وثائق مهمة عن تأثير السياسة المعادية لليهود في المستعمرة في فترة ما بين الحربين العالميتين، فضلاً عن الأنشطة التعاونية بين الرابطة ومنظمات الدفاع اليهودية الجزائرية.

وأخيراً، استخدمت روبرتس محفوظات متحف ذكرى الهولوكوست بالولايات المتحدة في واشنطن العاصمة للحصول على مزيد من الوثائق عن يهود الجزائر في ظل حكم فيشي، وملفات روبرت د. ميرفي (Robert D. Murphy) في أرشيف مؤسسة هوفر (Hoover Institution) بجامعة ستانفورد (Stanford) للحصول على وثائق عن دور اليهود في تمرد الجزائر عام 1945. إن استفادة الباحثة من مجموعة متنوعة من الوثائق من ستة أرشيفات، قد مكنتها من الاطلاع على مصادر تعبر عن اتهامات ووجهات نظر مختلفة، لتوضيح التجربة المعقدة للمواطنة اليهودية الجزائرية.

الحاج محمد الناسك

باحث في التاريخ (الدوحة، قطر)